الشرق والغرب[1]

او

نهوض الشرق والشرقيين

طالما سمعنا الناس يتساءلون ما تكون نتيجة هذه الحرب على مستقبل اوربا واميركا وسائر العالمين. والذي ارى انهُ ستقوم على اطلال الحرب حالة جديدة في الشرق تطلق فيها ايدي الشرقيين لادارة زمام حضارتهم الشرقية على خططهم الخاصة التي توحي بها خواطرهم وبدائهم. اذ لا يكاد عاقل يتصور ان الامم التي تقاتل دفاعاً عن استقلال بلدان اوربا الصغرى في هذه الحرب تتصدّى بعد الحرب لسير امم الشرق السفي. ذلك لان العالم اخذ ينبذ الفكرة القائلة ان بعض الامم خلق ليكون حاكماً يعمل لمصلحته والبعض الآخر خلق ليكون محكوماً مسخراً لمصلحة غيره. ولا مشاحة في ان الحرب اخذت ترفع عن ظهر الرجل الابيض حملهُ الذي حمّل نفسهُ اياهُ في الشرق. وان عطفنا على الشعوب الروسية والبولندية والسربية والنمسوية والمجرية والعثمانية زاد احترامنا لشعوب اسيا غير الحربية التي سماها تاغوره شعوب اسيا لا امم». ولا يتصور ان هذه الدنيا تكون بعد الحرب مكاناً تطيب الاقامة به للذين يحاولون استخدام امم اوربا وشعوب اسيا الضعيفة لمآربهم الخاصة. ونحن لا نعتقد انهُ يسمح فيما بعد لدولة اجنبية بالاستيلاء على كياوشاو لمثل العذر الواهي الذي قدمتهُ المانيا في استيلائها عليها وهو قتل مرسلين المانيين على يد عصابة من اللصوص غير المسئولين. او انهُ يسمح لاسطول من الاساطيل باحتلال بورت ارثر بدعوى ان الشتاء في ميناها اكثر اعتدالاً منهُ في ميناء فلادفستوك كما جرى من قبل. او يطلق على مدخل حديقة عمومية في شنغاي هذه العبارة «ممنوع دخول الصينيين والكلاب» كما كان يجري قبلاً

---

(١) بقلم الدكتور سدهندرا بوس الهندي مدرس علم السياسة الشرقية في جامعة ايوى وقد نشرت بالانكليزية في المجلة العلمية الشهرية الاميركية

ولا ينكر ان شعوب الشرق قصّروا عن امم الغرب في التدبير السياسي والحربي وبعض الشؤون الاخرى . ولكن لا يبعد في ساعة النقض وانباء هذه ان يلمع ظهوراً بعض الآفيسة التي تقيس بها درجة التقدم والحضارة على ما نعرفها الآن ويعاد النظر في حضارة الشرق ويحكم فيها حكماً يغاير الحكم الذي صدر عليها حتى الآن فيحسب الشرقيون مساوين لسائر الامم في درجة التهذيب والتركيب الضيمي. وبعبارة اخرى لا يبعد ان يكون العصر القادم عصر نهضة اسيا الفكرية (renaissance) اسوة بعصر الرينسانس الذي اتى على اوربا في القرون الوسطى ويتضح بجلي بيان ان السرّ الذي كان يكتنف الشرق ولا يزال يكتنفهُ الى الآن انما سببهُ الجهل وخوف المجهول وان قولة بعضهم « ان الشرق شرق والغرب غرب » انما هي لغو ساقط لا معنى لهُ

وان من يبحث في حضارة الشرق يقع في نفسهِ امرٌ ذو بال وهو انهُ كان لاسيا ليد الصدفة في حضارة العالمين عامة . خذ الصين مثلاً. فقد جرت العادة في بعض الدوائر ان يتحدث اهلها بسيات الصين الطويل ولكن عهد هذا السيات كان عهد نور وعرفان في حين ان اوربا كانت غارقة في بحار الحرب وسفك الدماء . قال الاستاذ هربرت جيلس في كتابهِ عن « مدنية الصين » « ان الصينيين فاقوا غيرهم على الدوام في الاختراع وفنّ الهندسة العملية وصنع الآلات بشهادة فنّ الطبع وسواقي الماء وغيرها من ادوات الريّ والزراعة وجسورهم العجيبة (دع السور الصيني المشهور) . وتجهيزهم المركبات بعدّاد لقياس المسافة منذ القرن الرابع للميلاد وجريهم على طريقة تحقيق الشخصية ببصم الاصابع منذ القرن السابع للميلاد. وسبك البرونز منذ القرن الثامن قبل الميلاد ان لم يكن اسبق من ذلك . وزرع الشاي منذ عهد لا يعرف اولهُ . واكتشاف الخزف وصنعهُ منذ نحو ١٦ قرناً »

ثم ان الصينيين اخترعوا البوصلة في القرن الحادي عشر قبل الميلاد فاقتبسها العرب عنهم في القرن التاسع بعد الميلاد ثم اخذها الاوربيون عن العرب بعد ذلك . وهم اول من فكّر في عمل الورق واستخدامهِ لحاجة الانسان وكان ذلك في القرن الاول للميلاد. وكذلك هم اول من اخترع البارود ونسج الحرير . وفي سنة ١٦٦ للميلاد ارسل الامبراطور مرقس انطونيوس الروماني وفداً الى الصين بحراً لجلب الحرير منها . واشتهر الصينيون منذ القدم بحفر الترع للري حتى كان لهم نظام

بديع منها ولعلّ الترعة الكبرى في الصين اقدم ترعة في العالم فانهم بدأوا يحفرونها سنة ٤٨٦ قبل الميلاد ولم يتموها حتى القرن الثامن عشر بعد الميلاد. وتراها تفخر بترعة بناما وهي لا تزيد على ٥٠ ميلاً في الطول اما طول الترعة الكبرى المشار اليها فالف ميل ولا تزال تستخدم حتى الآن لاغراض تجارية

ولنأتِ الى السور الصيني الذي كان يعدّ بين عجائب الدنيا السبع فانهُ بني لصدّ سيل الغزاة الناتحين من المغول وطولهُ اثنا ميل وهو ممتدّ على آكام وجبال يكاد تسلقها يكون متعذراً . قال فيهِ احد العارفين ان المواد التي بني منها تكفي لبناء مئة هرم كهرم الجيزة وحجارتهُ تكفي لبناء اثنتي عشرة مدينة مثل رومية ولردم ست ترع مثل ترعة بناما

ولا ننسَ ما لاسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين وفارس والهند من الفضل على سائر العالمين . فاننا مدينون للهنود بالارقام العشرية التي هي امّ الحساب وبترقية علم الجبر كثيراً . فقد ترجم كتّاب العرب كتب الجبر الهندية في القرن الثامن للميلاد واقتبس ليوناردو الايطالي الجبر عن العرب ودخلهُ الى اوربا

والهنود اول من اكتشف الهندسة . قال احد كبار المؤرخين ان الهنود اكتشفوا مبادىء الهندسة الاولية في القرن الثامن قبل الميلاد فاقتبسها اليونان منهم . وهناك ما يحمل على الاعتقاد بان الهنود هم ايضاً اول من وضع حساب المثلثات. اما كونهم بلغوا درجة سامية من المدنية فالدليل عليهِ انهم عرفوا تشريح الجسم الانساني معرفة تامة في القرن السادس قبل المسيح ومارسوا الجراحة في اوائل التاريخ المسيحي وكانوا اول من بنى المستشفيات لمداواة الامراض واستخدم المعادن لاستخراج الادوية منها حتى انهم عرفوا الزئبق قبل عهد براسلسس (١) والدورة الدموية قبل عهد هارفي (٢)

وعرف الهنود بعض الشيء عن مذهب النشوء والارتقاء فلها اثبتهُ سبنسر علمياً بقرون وطبقهُ دارون على تاريخ الانسان وقاوم هكسلي به الاديان . وقد كان هذا المذهب محور حكمة حكماء الهند كما قال بعض العارفين . فقد ورد

(١) طبيب الماني عاش في القرن السادس للميلاد فكان اول من قال بوجوب استخدام المعادن في عمل الادوية (٢) طبيب انكليزي عاش في القرن السابع عشر للميلاد وهو مكتشف الدورة الدموية على ما نعرفها الآن

في مقالة للدكتور جبر نبوتن عن « سر الشرق في الدين » قوله : ولشدة ولع الفيلسوف الهندي بالخيال لم يستطع الكلام على العالم المادي الا بالفاظ معنوية عقلية . فبات مذهب النشوء عنده مذهب كشف الستار عن اسرار هذه الحياة عن يد روح ازلي غير محدود وبعبارة اخرى كان تاريخ هذا المذهب في اعتقاده تاريخ الله نفسه فاصبح لذلك ديناً له . ولا يستطيع العالم الغربي ان يدخل هذه الحكمة الشرقية حسبان انها فكرة غريبة ولاسيما ان فلاسفة الخياليين والماديين يؤيدونها فان بركلي وهو فيلسوف خيالي يقول بها وهكسلي وهو فيلسوف مادي يقدم المذهب الخيالي على المادي اذا كان لا بد من الاختيار والتقديم

ومن اقوال الاستاذ رولنسن « انك لا تكاد تجد قضية في علوم الفلسفة العقلية او ما وراء الطبيعة او المنطق او النحو الا وفلاسفة الهند قد تبحروا فيها تبحر فلاسفة اليونان » . فلا بدع والحالة هذه اذا قيل انهُ من آسيا طارت شرارات العلم والادب التي مهدت السبيل لتقدم اوربه المادي

وهذه الخدم على عظم شأنها لا تحسب شيئاً مذكوراً في جنب الخدم الروحانية التي اداتها آسيا لبني الانسان . فان الشرق موطن الاديان وجميع الاديان التي غالبها الزمان فقلبتهُ اما نشأت في الشرق فعندك البرهمية والبوذية ومذهب كنفوشيوس وزرادشت والاسلام — هذه الاديان كلها نشأت في الشرق . وكذلك المسيحية الصرفة اي التي لم تشبها شوائب الخيال اليوناني او انتظام الروماني او تعاليم القرون الوسطى هي دين آسيوي وقد كان المسيح الناصري نفسهُ آسيوياً من الآسيويين

ولا يؤخذ من هذا ان الآسيويين اقتصروا على الخيال في فلسفتهم ولم يتعدوهُ الى الحقائق المحسوسة فان الباحثين في طبائع الشرق والشرقيين يقولون ان الآسيوي حيوان ديني وسياسي معاً . فقد جاء في تاريخ بعض المحققين « ان الهنود انشأوا مدناً جمهورية على مثال المدن اليونانية وحكومات حرة بين العشائر والقبائل وفي القرى المختلفة على مثال الحكومات الاولية بين القبائل الانجلوسكسونية . وقد كانت سلطنة الموريا الهندية التي قامت بين القرن الرابع والثالث قبل الميلاد اول سلطنة مركزية عرفت واوسع السلطنات انتشاراً . وفي القرن الرابع قبل الميلاد جرى في الهند احصاء للسكان على اساس حالتهم الاجتماعية

والاقتصادية . ونظم جيش بلغ عدده ٦٠٠ الف من المشاة في زمن السلم ما عدا الفرسان والمدفعية والهندسة »

ومن اقدم العهود الى القرن الثاني عشر للميلاد ظهر الهنود والصينيون والمغول والعرب بمظهر الحكام والفاتحين اينما ساروا وقام منهم عدد عديد من امثال شارلمان وفردريك ونبوليون . وفي اوائل القرن الثالث عشر زحف جنكيزخان على اوربا ففتح روسيا وبلغت اجزاؤها اتباعاً له ولطالما اضطروا الى قصد في عاصمة ملكهم البعيدة منهم بعداً شاسعاً لا يقل عن ثلاثة آلاف ميل فكان يتصرف في تيجانهم ورؤوسهم على ما شاء وشاء هواه . وظلت روسيا الاوربية تدفع الجزية الى سلطان شرقي مدة ولم يتحرر امراء موسكو من نير المغول حتى آخر القرن الخامس عشر

وبدأ الاتراك العثمانيون فتوحهم في القرن الثالث عشر فزحفوا على جنوب اوربا الشرقي واستولوا على الاستانة سنة ١٤٥٣ . وبلغت السلطنة العثمانية اوج عزها سنة ١٦٨٣ اذ امتدت الى ابواب فينا

وقد يقول قائل ان نظام الحكم الشرقي لم يكن ديموقراطياً . وربما كان هذا القول صحيحاً ولكن يجب ان لا يغرب عن البال ان الحكومة الديموقراطية الصحيحة حديثة النشأة حتى ليصح القول انه لم تقم في اوربا حكومة ديموقراطية صحيحة قبل الثورة الفرنسوية . ولا تزال المانيا تحني ركبتيها حتى الآن امام امبراطور يدعي حق الحكم الالهي . وقد وضع النظام الدستوري في ايطاليا سنة ١٨٤٨ ولكن الايطاليين لم يتمتعوا بالحكومة الوطنية حتى سنة ١٨٦١ . وعانت فرنسا ما عانت من سوء النظام والفوضى وخاضت بحاراً من الدم قبلما تمكنت من انشاء حكومة وطيدة الاركان في الجمهورية الثالثة سنة ١٨٧٠ . واطرى فولتير في زمانه نظام الحكومة الانكليزية المعاصرة له في القرن الثامن عشر وحذا مونتسكيو حذوه في كتابه « روح الشرائع » ولكن اتضح بعد الثورة الفرنسوية ان تلك الحكومة التي امتدحها فولتير ومونتسكيو رجعية كحكومات القرون الوسطى . وصف مؤرخ البرلمان الانكليزي في ذلك العهد فقال « انه مجلس مؤلف من اشياء الملاك والاعيان الذين فازوا في الانتخاب غالباً بالرشوة فلا يصح القول انهم كانوا يمثلون الامة حقيقة او انه كان للامة يد في انتخابهم »

ومن المشهور ايضاً ان اوربا لم تكن تعرف قانون الانتخاب العام في النصف الاول من القرن التاسع عشر

وان من يقابل الحضارة الاوربية بالحضارة الاسيوية — الامم بالامم والعصور بالعصور والقرون بالقرون تتجلى له هذه الحقيقة وهي « ان الشرق والغرب كانا حتى عهد نبوليون متساويين في العلم والاجتماع وغيرهما من فروع الفكر الانساني والجهد الانساني » كما قال احد العارفين. فالمسئلة الان هي ما الذي وسّع مسافة الخلف بينهما في العصر الحديث من حيث النموّ والارتقاء. والجواب واضح وهو ان الثورة الصناعية التي نتجت عن اختراع الآلات الميكانيكية هي التي حدت اوربا على انتهاج سبيل آخر يفترق عن الاول. فقد استعمل البخار لسوق الآلات في اوربا سنة ١٨٠٧ وفي فرنسا والمانيا سنة ١٨٣٥ او ما بعدها فتفعل ما فعل

فهذه الثورة الصناعية في اوربا ليس لها ما يقابلها في الشرق في القرن التاسع عشر. ولما كانت اسيا قد قصّرت في حسنة الصناعة الحديثة مال بعض الاوربيين الى القول ان السلالات الاوربية من جبلّة اسمى من جبلّة الاسيويين. ولكن هذه الدعوى بعرض الشك الكثير ولاسيما ان علم الطبائع كاد يثبت ان ليس هناك امة راقية وامة منحطة بالفطرة

قالوا ان التاريخ يعيد نفسهُ وهذا القول كثيراً ما نراهُ صحيحاً. قال بعضهم: « بالامس كانت اسيا راقدة على قلب اوربا واليوم ترى اوربا واقفة على قلب اسيا ». وقد يكون اسياد اليوم عبيد الغد والدهر في الناس قلّب. ولا ينكر ان بين الشرق والغرب فروقاً جمة ولكنها فروق عرضية لا جوهرية اي ان امم اوربا واسيا يتساوون في العقل والقياس الادبي والحمية الحربية اذا تساوت الاحوال التي يوجدون فيها. بل أذهبُ الى ابعد من هذا واقول ان الاسيويين والاوربيين على درجة واحدة في جميع الفضائل الاساسية والنقائص الشائنة. والاسيوي الذي لا يزال يمرّ بالتاريخ لا يخطر على بالهِ مطلقاً ان البيض اسمى من غيرهم لانهم بيض بل يحسب هذه الفكرة حديث خرافة

ولم تقم امام اهل اسيا معضلة عسرة الاّ في العصور الحديثة وهي معضلة السلطة الغربية فان قارة اسيا برمتها والجزر المحيطة بها ما عدا مكاناً او مكانين فيها أخضعت للامم الغربية فصارت ملكاً لها او أدخلت ضمن دوائر نفوذها. فقد قدّر الاستاذ

هور نبك ممتلكات اوربة في اسيا ٩٥٠٠٠٠٠ ميل مربع وعدد سكانها ٤٠٠٠٠٠٠٠٠ وجاء في كلام للدكتور بول رنش سفير اميركا في بكين الآن ان جانباً كبيراً من تلك المساحة أحرز «بالخداع والاغتصاب وسفك الدم». وفي سنة ١٩٠٠ اخترع امبراطور المانيا مسئلة الخطر الاصفر التي لا وجود لها خارج دائرة الوهم والخيال. وهذا حضرة الذين اتخذوا مسئلة خلق الحروب مهنة لهم سواء كانوا في اميركا او اوربا فارسلوا على مواطنيهم سيولاً من المنشورات والخطب والمقالات محاولة ان يبرهنوا لهم على ان اهل اسيا بجموعهم الكثيفة يتهددون اوربا واميركا باجتياحهما

والواجب مع ذلك كله ان لا ننسى ان الاسيويين بشراهم عيون وايد وحواس وعواطف وشهوات وهواء. والاستبداد في هذا العهد مخالف للعلم والعقل والمقياس الادبي سواء كان الشرق ميدانهُ ام الغرب. وهو عدوّ الديمقراطية الالدّ بل هو البربرية متنكرة. ولا يعقل ان الالوف المؤلفة من الاسيويين الذين بذلوا نفوسهم وكلّ ما لهم في حرب المدنية هذه منذ سنة ١٩١٤ على امل تمثيك الديمقراطية في جميع جوانب الكرة — يرجعون يخفي حنين ويكونون قد بذلوا نفوسهم وكل ما لهم عبثاً واضاعوها سدى

قال الرئيس العظيم لسان حال الامم المتحالفة باجتماع الراي انما نروم بهذا النزاع جعل العالم مكاناً امناً للديموقراطية. وقد هتف الشرق والشرقيون لهذه الكلمات الموسومة بالرجاء الداعية الى انشراح الصدر كما لو صدرت من فم نبيّ

وختم الكاتب هذه المقالة بقوله: ومهما يحدث فهناك حقيقة لا مهرب منها وهي ان اسيا جعلت تستفيق من سباتها السياسي. وان خميرة الديموقراطية آخذة في التخمير. وان مبادىء الحرية والديموقراطية تتخلل القارة الاسيوية من كل جانب. وان الشرق يدنو الى نور جديد. وقد تعرض لاسيا عثرات صعبة في طريقها تعثرها وتسقط حيناً بعد حين ولكن لا بدّ ان تنهض من كبوتها وتسير الى الامام سيراً مطرداً. وهي لا تطلب الاّ الامن والعدل لنفسها والخير لسائر العاملين ولا غاية لها الاّ المعيشة والعمل على وداد ومساواة مع سائر الخلق. انتهى بتصرف